جهود المستشرقين الإسبان في خدمة الثقافة الأندلسية والعربية

د. لؤي علي خليل

جامعة قطر

الملخص

نشأ الاستشراق في الثقافة الغربية، أول أمره، استجابةً لحاجات استعمارية تتعلق بفهم الآخر، ولاسيما العربي المسلم، بغية إدراك طرائق استيعابه والتأثير فيه ومعرفة مكامن ضعفه؛ لاستثمارها من أجل تحقيق غايات ذات صلة بالطموحات الاستعمارية للغرب في ذلك الحين. غير أن التطورات التي طرأت على المجتمعات الإنسانية أدت إلى تراجع الشكل العسكري للاستعمار، لمصلحة أشكال أخرى أقل صداماً وأكثر نعومة، تحت مسميات مختلفة؛ كمعرفة الآخر وحوار الحضارات والعولمة.

تحاول هذه الدراسة أن تميط اللثام عن جهود المستشرقين الإسبان في سبيل خدمة الثقافة الأندلسية خاصة والعربية عامة، ولاسيما أن المثقفين الإسبان باتوا يرون في المرحلة الأندلسية جزءاً لا يُجتزَأ من تاريخ إسبانيا الحضاري.

الكلمات المفتاح

الاستشراق/الأندلس/الثقافة العربية/المستشرقون الإسبان

Orientalism/Andalusia/the Arabic culture/Spanish/Orientalists

Orientalism in Western culture is an evolving model of the discovery of other civilizations - especially Islamic Arabism. It was first adopted as a prelude to the realization of the aspirations of colonial domination through the military machine. Invested later as a basis for understanding the mechanisms of thinking of different cultures; Or to build a knowledge system that helps to develop perceptions of (how to deal with them: at the political, cultural, social or other levels integral part of the history of civilized Spain

. This study attempts to reveal the efforts of orientalists in Spain, to serve the Andalusian culture in particular and the Arab in general, especially that the Spanish intellectuals are seeing in the Andalusian stage an

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1681

يُشكّل الاستشراق بالنسبة إلى الثقافة الغربية أنموذجاً متطوراً من حالات اكتشاف الحضارات الأخرى – ولاسيما العربية الإسلامية– اعتُمِد أول أمره ليكون تمهيداً لتحقيق طموحات الهيمنة الاستعمارية عبر الآلة العسكرية، ثم استُثمر فيما بعد ليكون أساساً لفهم آليات تفكير الثقافات المختلفة؛ تمهيداً لدمجها في إطار دائرة العولمة، أو لبناء منظومة معرفية تساعد على وضع تصورات لكيفية التعامل معها على الصعيد السياسي، أو الثقافي، أو الاجتماعي، أو غير ذلك من أصعدة قد يتطلّبها تمكين العلاقة مع الآخر.

وبهذا المعنى لم يكن ممكناً تصنيف علم الاستشراق ضمن إطار (معرفة الآخر)، الذي يتحدد هنا بوصفه النتاج الحضاري للشرق لغةً وثقافةً وعادات؛ ذلك أن حركات الاستشراق الأولى لم تكن خالصةً لوجه العلم، إذ كانت مرهونةً بأهداف من مثل: تفكيك الحضارة الإسلامية من الداخل عبر زعزعة الإيمان بقوة نظام الخطاب النصي للقرآن الكريم والحديث الشريف. وهذا ما يُفسّر اهتمام المستشرقين المبكر بالنصوص المقدسة. (1)

ونمط آخر من الأهداف هو الهدف التبشيري الذي أعقب الحروب الصليبية. وقد أشار المستشرق الألماني (رودي بارت/ Rudi Parit) إلى أن الهدف من وراء هذا النوع من كتابات المستشرقين هو إقناع المسلمين عبر لغتهم ببطلان دينهم وجذبهم نحو المسيحية. (2)

غير أن التطور الذي لحق بالحضارة الإنسانية وبمفهوم العلاقات الثقافية انعكس إيجابياً على دراسات المستشرقين، فلم يعد الهم الأساسي لها ذا نزعة سياسية أو دينية خالصة، بل أخذ الإيمان بضرورة المثاقفة بين الحضارات يزداد يوماً بعد يوم، انطلاقاً من فكرة أن المعرفة تراكمية، مما يعني ضرورة الاستفادة مما حققه الآخر؛ كي لا نبدأ من نقطة الصفر دائماً، ونكرر ما سبق أن أنجزه الآخرون دون زيادة تذكر.

وعلى هذا الأساس بدأ يتوسع الاهتمام بالنتاج الثقافي للحضارة الإسلامية الشرقية؛ فلا يكاد يخلو بلد غربي الآن من وجود ما يسمى (كراسي اللغات الشرقية) التي تهتم بتعليم اللغات الشرقية، وتُعنى بآدابها وثقافتها.

ولعل مما يؤكد ذلك ما جاء في موسوعة (المستشرقون) التي أعدّها (نجيب العقيقي) عن الاستشراق والمستشرقين، فقد شملت الموسوعة نحو عشرين بلداً أجنبيا لا ينطق أهلُه العربيةَ بصفتها لغتهم الأم، وهي: (فرنسا، إيطاليا، إنجلترا، إسبانيا، البرتغال، النمسا، هولندا، ألمانيا، بولونيا، الدانمرك، سويسرا، السويد، المجر، روسيا، الولايات المتحدة، بلجيكا، وتشيكوسلوفاكيا (سابقاً)، فنلندا، رومانيا، يوغسلافيا)، فلم يخل بلد من هذه البلدان من وجود كراسٍ

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1681

للغات الشرقية في جامعاتها، بالإضافة إلى مكتبات شرقية، ومتاحف شرقية، وجمعيات ومجلات شرقية، بل حتى مطابع شرقية، كما هو الحال في فرنسا، وإيطاليا، وإسبانيا، والنمسا، وألمانيا، والدانمرك، وروسيا.(3)

ومع هذا التطور أخذت ترتفع أصوات تدعو إلى ضرورة إنصاف الحضارة الإسلامية عامةً، وإنصاف دورها في النهضة الأوروبية خاصةً، ذلك الدور الذي عُبّد عبر الجسر الإسباني/ الأندلسي، على أساس أن إسبانيا – الأندلس هي بوابة التّماسّ بين الحضارة الإسلامية والغرب. (4)

وعلى الرغم من هذه الخصوصية الإسبانية تجاه الثقافة العربية الإسلامية لم تكن إسبانيا نفسها حتى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين – في موقفها من الثقافة الإسلامية – أفضل حالاً من بقية الدول الغربية؛ فقد كانت طيلة القرون السابقة ترفض الاعتراف بأي دور للإسلام في تشكيل هويتها الثقافية، وكانت تنظر إلى تاريخ الوجود الإسلامي فيها على إنه ماضٍ لا بد من نسيانه كي تلحق بركب القافلة الأوربية.

و لكن الحال اختلفت كثيراً مع بدايات القرن العشرين، و لعلّ في كلام الروائي الإسباني (خوان غويتسيلو/ Juan Goytisolo) ما يجسد هذا الاختلاف، إذ يقول:" أعتقد أنه قد حان الوقت بالنسبة لأي إسباني في القرن العشرين لأن ينظر إلى ماضيه بدون عقد، ذلك أن التخلّف الثقافي لإسبانيا خلال الثلاثة القرون الأخيرة إزاء أوروبا جعل المثقفين والمفكرين الإسبان يبذلون جهداً متعمداً للحد من هذا التخلّف عن طريق طرح فكرة (أَرْبَنَة) إسبانيا، و رفض كل ما كان في تاريخها يتعارض مع صورة بلد غربي أوروبي...والآن تجاوزت إسبانيا تخلّفها الثقافي والاقتصادي والسياسي، وجاءت اللحظة التي يجب أن تنظر فيها إلى أن اختلافها الثقافي ليس عيباً، وإنما هو ثروة، فهذا الذي يجعلها تختلف عن أوروبا شيء يجب أن نفتخر به". (5)

وفي الخطاب الذي ألقاه جلالة ملك إسبانيا (خوان كارلوس/ Juan Carlos) في مدينة الزهراء 1992/11/4 ما يدل دلالة كبيرة على مدى التغيّر الذي طرأ على نظرة الإسبان تجاه الحضارة العربية في الأندلس، فقد قال:" تعتبر الأندلس... مجموعة من الدلالات الأسطورية من ماضٍ له حضارة، لا تتجسد في أي مكان بمثل ما تتجسد به في هذه الآثار الموغلة في القدم التي تحتضننا الآن. وهي آثار ترتبط بأسماء لامعة كابن رشد وأبي القاسم الزهراوي وابن حزم وابن زيدون. إنها أسماء لامعة يفتخر بها العرب والإسبان على حد سواء". (6)

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1681

ويبدو أن الإحساس بسريان الثقافة العربية في الجسد الإسباني ليس إحساساً جديداً، بل هو قديم قدم الوجود الإسلامي في إسبانيا – الأندلس؛ أدركه الشعور الجمعي الشعبي الإسباني قبل أن يُقرَّه المثقفون؛ فقد سبق أن أشار (خيسوس ريوساليدو/ Jesus Reo Saledo) إلى شيوع أسطورة عن المسلمين بين مسيحيّي إسبانيا مفادها أن مسلمي الأندلس المبعدين بقرارات محاكم التفتيش دفنوا كنوزهم تحت أرض إسبانيا. (7)

والحق أن هذه الإشارة شديدة الأهمية في فهم مكان الثقافة الإسلامية في الوعي الشعبي؛ ذلك أن الكنوز المشار إليها ليست في الحقيقة وهماً خرافياً كما أراد أن يوحي (خيسوس ريوساليدو)، وإنما هي الصوت الشعبي الذي يشير إلى تغلغل الروح العربية الإسلامية (الأندلسية) في قلب النسيج الحضاري لإسبانيا، بحيث يمكن القول: إن هذه الروح هي الكنز المخبوء داخل أرض إسبانيا؛ فتحْتَ تُربتِها تسري الدماء العربية الإسلامية لتُشكّل مع الدماء المسيحية نسيج هذا الجسد الإسباني.

ولقد كان لهذه العلاقة الخاصة بين الثقافة العربية الإسلامية وإسبانيا/ الأندلس بعيد الأثر في جلب اهتمام المستشرقين الإسبان إلى الثقافة العربية منذ عهد مبكر، ولاسيما الثقافة العربية الإسلامية في الأندلس، وهو اهتمام يكاد يفوق اهتمام المستشرقين من بقية الدول؛ وسر ذلك أن المستشرق الإسباني حين يبحث في قضايا الثقافة العربية لا يشعر بالغربة التي قد يشعر بها مستشرق آخر من غير إسبانيا؛ ذلك أن البحث في الثقافة العربية الإسلامية في الأندلس هو بحث في الجذور التاريخية لثقافته الإسبانية.

وهذا ما عبّرت عنه (كارمن رويث برابو/ Carmen Ruiz Bravo) حين رأت أن "الترجمة بين العربية والإسبانية هي ترجمة بين مجتمعين يلتقيان عن قرب، أحيانا، مثل اللقاء بين الوسادة والوجنة وبين البلّور والضوء".(8)

وقد انعكست خصوصية العلاقة بين العرب والإسبان على اهتمام الجامعات الإسبانية باللغة العربية، فمنذ تأسيس جامعة (سالمنكا) عام 1227م– التي عدّها مجمع فيينا أحد المراكز الصليبية الأربعة في أوروبا– كانت تشتمل على 25 كرسياً منها اليونانية والعربية. كما شمل الاهتمام بالعربية بقية الجامعات أيضاً، مثل: جامعة إشبيلية (1254)، وبالما (1280)، وليريدا (1300)، وبلنسية (1474)، وسرقسطة (1474)، ومدريد (1508)، وغرناطة (1540).

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1681

وقام الملك كارلوس الثالث (1716 – 1788) بجعل معرفة اللغة العربية مطلباً لترقية الموظفين. وفي عام (1974) صدرت قوانين تنظيم الجامعات، فوضعت اللغة العربية في قسم اللغات الحديثة، مثل الإنجليزية والألمانية والإيطالية.

كما أُنشِئت مدرسة الدراسات العربية في مدريد عام (1933)، وأدمجت في المجلس الأعلى للأبحاث العلمية عام (1939) وأطلق عليها معهد آسين للدراسات العربية. وفي مدريد هناك أيضاً مدرسة الألسن العليا التي بها قسم خاص للغة العربية. وهناك أيضاً المعهد المصري للدراسات الإسلامية الذي أُنشئ عام (1950). وفي عام 1954 تأسس في مدريد المعهد الإسباني العربي للثقافة، ثم وضع له قانون خاص وميزانية مستقلّة عام (1975)، وأنشأ مراكز له في: طنجة، والرباط، والجزائر، والقاهرة، وعمان، ودمشق، وبغداد، وأنقرة. (9)

ويوجد في إسبانيا مجموعة من المكتبات الشرقية التي تُشكّل المخطوطات العربية قسماً كبيراً منها، مثل مكتبة الإسكوريال (1557) وفيها حوالي 1900 مخطوط عربي. ومكتبة مدريد الوطنية (1716) وتحتوي حوالي (606) مخطوطا عربيا. ومكتبة جمعية الأبحاث العلمية: خونتا (1907) وقد ضُمت إلى مكتبة المجلس الأعلى للأبحاث العلمية (1940). ومكتبة الإقامة الإسبانية السابقة بتطوان (1939) فيها حوالي 5650 كتاباً عربياً و757 مخطوطاً و252 مجلداً مطبوعاً في المطبعة الحجرية بفاس. ويضاف إلى كل ذلك مكتبات الجامعات والمعاهد والمراكز ومجمع التاريخ، هذا ما خلا المكتبات الخاصة لأهم المستشرقين، مثل: (كوديرا/Francisco Codera)، و(ريبيرا/Julian Ribera)، و(آسين بالاثيوس/Miguel Asin Palacios)، و(آنخل بلنيثا/ Angel Gonzalez Palencia)، وغيرهم. وفيها أيضا مطابع شرقية، مثل مطبعة مايستري في مدريد (1900) ومطبعة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد (1953). وهناك عدد من المجلات التي تعني بالشرق، مثل مجلة فريقيا، ونشرة جمعية المستشرقين الإسبان، ومجلة الأندلس (معاهد الدراسات العربية في مدريد وغرناطة)، وكراسات معهد الدراسات الأفريقية والشرقية، وصحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية وتصدر بالعربية والإسبانية، ومجلة الشرق الأوروبي، وحوليات معهد الدراسات العربية، ومنوعات دراسات عربية وعبرية، وأعمال مؤتمر الدراسات العربية. وهناك عدد من المجلات يهتم بالثقافة الشرقية وإن لم يكن مختصاً بها، مثل: نشرة المجمع الملكي للتاريخ (مدريد)، ونشرة المجمع الملكي للآداب (برشلونة)، ومجلة الفلسفة (مدريد)، والدراسات الفلسفية (سنتندر)، ومجلة المكتبات والمتاحف (مدريد). (10)

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1681

وبسبب هذا الاهتمام الإسباني المبكر بالثقافة العربية كَثُر عدد المستشرقين الإسبان المهتمين بهذه الثقافة. وقد أحصى العقيقي في موسوعته (المستشرقون) التي صدرت طبعتها الرابعة عام (1980) أكثر من (150) مستشرقاً إسبانياً. (11) ولعل هذا العدد قد تضاعف الآن بمرور أكثر من عشرين عاماً على إحصاء العقيقي.

وإذا أردنا أن نحيط بالجهود التي بذلها المستشرقون الإسبان في سبيل نشر الثقافة العربية وخدمتها يمكن أن نحددها ضمن أربعة مستويات:

- **المستوى الأول**: بيان أثر الثقافة العربية الإسلامية في الثقافة الغربية.
- **المستوى الثاني**: التأليف في قضايا الثقافة العربية الإسلامية.
- **المستوى الثالث**: ترجمة الآثار العربية إلى اللغات الأخرى، والإسبانية خاصة.
- **المستوى الرابع**: تحقيق المخطوطات العربية ونشرها.

وفي إطار ***المستوى الأول*** نكتفي بذكر مثالَين بالِغَيْ الأهمية، يكفيان وحدهما لرصد قيمة الخدمة التي أسداها المستشرقون الإسبان للثقافة العربية الإسلامية.

المثال الأول هو تأثير الشعر العربي الأندلسي في الشعر الغنائي الأوروبي؛ إذ كان الاعتقاد السائد بين عامة المثقفين هو قولهم: "جاء الشعر (البروفنسالي) منذ نشأته بعيداً عن أي تأثير أجنبي. لقد انبثق فجأة، كزهرة انشقت عنها الأرض بلا ساق ولا جذور". (12) ولكن المستشرق (خوليان ريبيرا) غيّر مسار هذا الاعتقاد وأخذ يؤسس لنظرية تؤكد تأثير الموشحات والأزجال الأندلسية في الشعر الغنائي الأوروبي. وهذا ما أثبته من بعده مستشرقون آخرون أمثال (آنجل بلنثيا) و(جارثيا جوميث/Emilio Garcia Gomez)، حتى كادت هذه النظرية أن تصبح الآن من البديهيات بين المختصين في هذا المجال. (13)

أما المثال الثاني فهو الدراسة المهمة التي بذلها المستشرق الإسباني (ميجيل أسين بلاثيوس) ليثبت تأثير الثقافة الإسلامية في (الكوميديا الإلهية) لـ (دانتي/Dante Aleghieri)، وأخرج في سبيل ذلك كتاباً كبيراً تتبّع فيه الأحاديث النبوية التي وردت عن إسراء النبي صلى الله عليه وسلم ومعراجه، وأضاف إليها النصوص الشعبية للمعراج؛

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1681

مثل النص المنسوب إلى ابن عباس، وكذلك النصوص الصوفية التي تحاكي هذا المعراج، مثل نصوص ابن عربي، ليخلص من هذه النصوص إلى تأكيد تأثير هذه النصوص في تشكيل الكوميديا الإلهية لدانتي. (14)

وتعد هذه النظرية التي تبنّاها بلاثيوس من أهم الكشوف العلمية في ميدان الاستشراق خلال القرن العشرين، ولاسيما بعد أن عثر العلماء على الترجمتين اللاتينية والبروفنسية للنص العربي لقصة المعراج، مما أصبح معه القول بتأثر دانتي بها أمراً مفروغاً منه.

وفي ***المستوى الثاني***(15) هناك الكثير من الكتب و الدراسات التي ألّفها المستشرقون الإسبان حول الثقافة العربية الإسلامية، نذكر منها: كتاب (المنهج السليم لتيسير تعليم اللغة العربية) للمستشرق (بدرو دي ألكالا/ Pedro De Alkala)، وهو أوّل مصنّف لقواعد اللغة العربية في أوروبا.(16) وكتاب (تراجم المؤرخين والجغرافيين المغاربة والأندلسيين) لـ(بونس بويجيس/ Francisco Pons Biogues)، طبع في (مدريد 1898). و(دراسة الكتابات العربية في غرناطة) طبع في (غرناطة 1879) – وكتاب (فهرس المخطوطات العربية في جامعة غرناطة) (باريس 1890، 1894) وكلاهما لـ (ألماجرو كارديناس/ Antonio Almagro Y Cardenas).

وللمستشرق (جاسبار ريميرو/Gaspar Remiro) عدة مؤلّفات في هذا المجال منها: (القرطبيون والمسلمون في الإسكندرية واليونان) طبع في سرقسطة (1904)، و(تاريخ مرسية الإسلامية) طبع في سرقسطة (1905)، و(من غرناطة الإسلامية) طبع في نشرة مجمع التاريخ (1906)، و(كتابات غرناطة العربية) طبع في غرناطة (1907)، و(وثائق عربية لملوك غرناطة) صدر في مجلة المحفوظات (1909-11).

وللمستشرق (مانويل جوميث مورينو/Manuel Gomez Moreno): (تاريخ العرب في إسبانيا وإيطاليا) صدر عن نشرة الجمعية الإسبانية –رحلات (21، 1913)، ونشرة مجمع التاريخ (100، 1932)، والأندلس (7، 1942)، و(9، 1944) و(16، 1951)، وكتابه (الفن الإسلامي في إسبانيا) الذي نقله إلى العربية لطفي عبد البديع، (القاهرة 1962).

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1681

وللمستشرق (سانشيث بيريث/Jose Augusto Sanchez Perez) كتابان (القصص العربي الشعبي) صدر في مدريد (1952)، و (العلم العربي في العصر الوسيط، صدر في مدريد (1954).

وللأب (كارلوس كيروس/ Carlos Queros, P.) عدة كتب، مثل: (حكم الشرع في التملك على المذهب المالكي) صدر في تطوان (1935)، وفي حوليات معهد الدراسات العربية (1949)، و(نظم المذهب المالكي) صدر في سبتة (1942)، و(شعراء الأندلس) صدر في مدريد (1952)، و(ابن خلدون سياسي ومؤرخ) الذي صدر عام (1952)، وكتاب (ابن بطوطة) عام (1952)، وكتاب (المرابطون) عام (1955).

وللأب (ملتشور أنطونيا/ Melchor M Antunia) مؤلفات أيضاً في هذا المجال، منها: (ابن حيان القرطبي ومصنفاته التاريخية) صدر في الإسكوريال (1924)، و(ابن خاتمة المريني ومقاله عن الطاعون) صدر في مجلة الدين والثقافة (جـ4)، و(إشبيلية وآثارها العربية) صدر في الإسكوريال (1930).

كما صنّف الأب (فيليكس باريخا/Felix Maria Pareja) كتاباً في جزأين بعنوان: (إسلاميات) صدر في مدريد (1952– 1954)، وله أيضاً: (الإسلام والمسيحية) صدر في بورغوس (1965).

والقائمة طويلة جداً لا يمكن حصرها ضمن هذا المجال الضيّق، ولذلك نكتفي بما ذكرناه على أنه نموذج عن دراسات المستشرقين الإسبان في قضايا الثقافة العربية الإسلامية.

أما ***المستوى الثالث***، الخاص بنقل النصوص العربية إلى اللغات الأخرى، ليتم وضعها في مكانها الصحيح من الحضارة الإنسانية فيمكن أن نعود به إلى بوادره الأولى التي تتمثل فيما عرف بـ (مدرسة طليطلة للترجمة)، ففي حكم (ألفونسو السابع/ Alfonso VII) (1126–1157) أصبحت طليطلة مركزاً لنشر الثقافة العربية إلى أوروبا. وبدأ ذلك على يد (الأسقف رايموندو/Don Raimundo) (1130-1158) الذي رعى مجموعة من المترجمين سميّت فيها بعد (بمدرسة مترجمي طليطلة). (17)

و قامت هذه المدرسة بترجمة عدد من الكتب العربية في الرياضيات والفلك والطب والكيمياء، والفلسفة، وما سوى ذلك من علوم، مثل: (رسالة العمل بالإسطرلاب) لـ (ابن الصفا)، وكتاب (عبد العزيز القابسي) في التنجيم،

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1681

وكتاب (مقاصد الفلاسفة) لـ (الغزالي)، وكتاب (السماء والعالم) لـ(ابن سينا)، ومنها أيضاً "(أورجانون) أرسطو وشروح المسلمين عليه، أو مختصراتهم له، وهي شروح و مختصرات جليلة، وضعها فلاسفةٌ مسلمون، أمثال الكندي والفارابي وابن سينا والغزالي وابن رشيد". (18) وغير هذه الكتب كثير.

ومن أهم أسماء مترجمي هذه المدرسة (دومنجو جُنذالذ/Domingo Gonzalez) و(يوحنا بن داود الإسباني). وتلا هذين (جيراردو الكرموني/ Gerardus Cremonensis)، "وكان على رأس فريق ترجم أكثر من سبعين مؤلفاً ترجمة حسنة، منها ملخص لكتاب الخوارزمي... وترجمة أبي الوفاء للمجسطي ... وكتاب جابر بن أفلح في إصلاح المجسطي ...وزيج الزرقالي". (19)

وبقي اتجاه الترجمة هذا مستمراً دون انقطاع تقريباً، يتابعه المستشرقون جيلاً بعد جيل، فمن ذلك الترجمة الإسبانية التي قام بها (فرناندث فرانشيسكو/Francisco Fernandez y Gonzalez) لكتاب (البيان المغرب) لـ (ابن عذارى المراكشي)، طبع في غرناطة (1862)، والترجمة التي أعدها (ريبيرا طراجو/ Julian Ribera y Tarrago) لكتاب (تاريخ قضاة قرطبة) لـ(الخشني)، صدر في مدريد (1914)، وكتاب (فتوح الأندلس) لـ (ابن القوطية)، صدر في مدريد (1926)، وترجمة (ألاركون إي سانتون/Alarcon y Santon) لكتاب (سراج الملوك) لـ (أبو بكر الطرطوشي)، صدر في مدريد (1931)، وترجمة (جنثالث بلنثيا) لكتاب (وراء الطبيعة) لـ (ابن رشد)، صدر في مدريد (1915). (20) كما قام (خوان فيرنيت/Juan Vernet) بإنجاز ترجمتين لمعاني القرآن الكريم إلى اللغة الإسبانية (1953 و1963) وأضاف عام (1964) ترجمة إسبانية لحكايات (ألف ليلة وليلة). (21)

ويتعلّق ***المستوى الأخير*** من خدمات المستشرقين الإسبان تجاه الثقافة العربية الإسلامية بنشر المخطوطات العربية وتحقيقها. وهذا اتجاه على درجة كبيرة من الأهمية، فهنالك كثير من المخطوطات العربية لم تلق النور بعد، وفي ظهورها فائدة كبيرة لاستكمال استيعاب منجزات الحضارة العربية الإسلامية كافة، لتأخذ مكانها في الحضارة الإنسانية.

وتضم مكتبة الإسكوريال بإسبانيا عدداً كبيراً من هذه المخطوطات أحصى منها الجد (ميخائيل الغزيري) – بتكليف من الحكومة الإسبانية– في معجمه (المخطوطات العربية بالإسكوريال) (1853) مخطوطاً. وتمم المستشرق

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1681

الفرنسي (هارتغج ديرنبورج/ Hartiwig Dernbourg) عمل الجد فوصل بالمخطوطات إلى الرقم (1955) بزيادة حوالي (100) مخطوط. (22)

ومما نشره المستشرقون الإسبان من المخطوطات العربية نذكر: (لغز قابس) لـ (ابن مسكويه) نشر (مدريد 1793)، وكتاب (الفلاحة الأندلسية) لـ (ابن العوام) نشره الأب (بانكيري/ Banqueri, P.J.A) في جزأين (مدريد 1751 – 1802). وقام (بسكوال دي جايَنجوس/Pascual De Gayangos y ARCE) بنشر قسم كبير من (نفح الطيب) لـ (المقرّي) في مجلدين (لندن – مدريد 1840–1843). وقام الأب (موراتا/ Nemesio Morat) بنشر بحوث (ابن رشد) على (رسالة في النفس) لـ (أرسطو) في معهد الدراسات العربية، مدريد وغرناطة (1934). وقام (أ. ويثي ميراندا/Amboroso Huici Miranda) بتحقيق كتاب (علم الكلام) لـ (ابن رشد) في مدريد (1947). وحقق (سيكودي لوثينا باريديس/Secode Lucena Paredes) كتاب (نقط العروس) لـ (ابن حزم) في غرناطة (1941). كما حقق (خوان فيرينت) كتاب (بسط الأرض في الطول و العرض) لـ (علي بن سعيد المغربي) في تطوان (1958) (23) ، إلى آخر ما هنالك من كتب لا تزال تصدر حتى الآن.

ــ وللوصول إلى صورة مكتملة عن الدور الإيجابي الذي أداه المستشرقون الإسبان تجاه الثقافة العربية الإسلامية يحسن أن نعرض لأعمال بعض هؤلاء المستشرقين. وقد آثرنا أن نختار مستشرقَين من جيلين مختلفين، الأول من جيل الرواد الذين دعموا قواعد الاستشراق في إسبانيا أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وهو المستشرق الأب (آسين بلاثيوس)، والآخر يُعدّ من الجيل الجديد نسبيّاً، وينتمي إلى النصف الثاني من القرن العشرين، وهو المستشرق (فيدريكو كورنتي).

ولد الأب (**آسين بلاثيوس**/Miguel Asin Palacios)(24) في سرقطة عام (1871)، و تخرج في معهدها الديني، وتلقى العربية على المستشرق (ريبيرا)، ونال الدكتوراه من جامعة مدريد (1896)، ونشر رسالته عن (الحقيقة والأخلاق والتصوف لدى الغزالي) عام (1901)، ثم خَلَف (كوديرا) على كرسي العربية في جامعة مدريد (1903)، وألقى خطاب انضمامه إلى مجمع العلوم الأخلاقية و السياسية في مدريد عن (ابن مسرة) ومذهبه (1912)، وكذلك ألقى خطاب انضمامه إلى المجمع اللغوي في مدريد عن (المصادر الإسلامية في الكوميديا الإلهية) لـ (دانتي) عام (1919)، وكان خطاب انضمامه إلى مجمع التاريخ في مدريد عن دراسة كتاب (الفِصَل في الملل

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1681

والأهواء والنحل) لـ (ابن حزم) عام (1923)، ثم حققه فيما بعد ونشره في خمسة أجزاء، وعيّن رئيساً للمجمع اللغوي عام (1943)، وحرر مجلة (الأندلس)، وانتخب عضواً في مجامع علمية عديدة؛ منها المجمع العلمي العربي في دمشق، ومثّل بلاده في معظم مؤتمرات المستشرقين، ورتّب في مكتبته الجذاذات التي كان قد جمعها (ريبيرا إي طراجو) في تراجم علماء العرب في الأندلس، فبلغت ثلاثين ألفاً. وقد اشتهر الأب (آسين بلاثيوس) بدراسة حركة التفاعل الثقافي بين المسيحية والإسلام، وتخصص في الفلسفة والتصوّف.

أما آثاره فكثيرة، نذكر منها: (العقيدة والأخلاق والتصوّف لدى الغزالي) صدر عام (1901)، و (مذهب ابن رشيد ولاهوت توما الإكويني) صدر في كتاب (تكريم كوديرا، سرقسطة 1904)، و عُنى بـ (محي الدين بن عربي) عنايةً شديدة، فنشر عنه سلسلة دراسات منوعة، منها: (محي الدين بن عربي) صدر عن مؤتمر المستشرقين 14، الجزائر، وفي مجلة (الثقافة الإسبانية)، مدريد (1906)، وفي (نشرة مجمع التاريخ) (1925– 26–28)، وترجم إلى الإسبانية كتاب (الأخلاق والسلوك) لـ (ابن حزم القرطبي)، صدر في مدريد (1916)، وصنّف كتاباً بعنوان: (المتصوّف ابن عربي)، صدر في مدريد (1925)، ونشر (رسالة القدس) لـ (ابن عربي)، في مدريد (1929)، وكتب رسالة مشتركة عن الناحية المظلمة في صوفية ابن عربي.

كما وضع (بلاثيوس) فهرس المخطوطات العربية في غرناطة، وصدر في غرناطة (1912)، و نشر الأصل العربي لرسالة (الجدل بين الحمار والأخ انسلمو) في مدريد (1914)، و دراسة عن (ابن مسرة و مدرسته وأصول الفلسفة الأندلسية) في مدريد (1914)، ونشر كتاب (المدخل إلى صناعة المنطق) لـ (ابن طَلموس)، الجزء الأول: (كتاب المقولات وكتاب العبادة) متناً وترجمةً إلى الإسبانية، وصدر في مدريد (1916)، وصنف كتاباً في ابن حزم، صدر في مدريد (1924)، ونشر له (الفِصل في الملل والنحل) متناً وترجمةً إلى الإسبانية، مع تحليل لنقده الأفكار الدينية، في خمسة أجزاء، وصدر في مدريد (1927)، ودراسة عن (ابن حزم) صدر في مجلة (الأندلس) (1934)، وصنف كتاباً بعنوان (الآيات الإسلامية في الكوميديا الإلهية) أورد فيه أدلة تاريخية عن أخذ (دانتي) عن (المعري)، وصدر في مدريد (1919)، وفي المعهد الإسباني العربي للثقافة (1961)، ونشر (محاسن المجالس) لـ (ابن العريف) متناً وترجمةً إلى الفرنسية، وصدر في باريس (1931)، وله مقارنة بين (ابن عباد الرُّندي) و(يوحنا الصليبي) صدرت في مدريد (1932)، وله مصنف في (الغزالي) والنصرانية، في جزأين، برهن فيه على تحليل عميق لكتاب (إحياء علوم الدين) وصدر في مدريد (1934).

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1681

وله أيضاً: ابن رشد (المجلة الإفريقية 50، 1906) وابن طلموس (المجلة الآسيوية 1908)، وهجاء اليهود (منوعات ديرنبورج 1909)، وفقيه من صقلية (الذكرى المئوية لأماري جـ 2، 1910)، وكتاب العين (مجلة الشرق 49، 1912)، وتصوف الغزالي (منوعات جامعة القديس يوسف بيروت 7، 1914)، وتعليم العربية في إسبانيا (المجلة الإفريقية 58، 1914)، والأثر الإسلامي في الكوميديا الإلهية (مجلة التاريخ المقارن 4، 1924)، وعن التصوف الإسلامي (نشرة مجمع التاريخ 1925، 26،28، و مجلة الغرب 30، 1930، و الأندلس 2، 1936)، والوحي في الإسلام (3، 1935)، وكتب عن (البتاني) (الأندلس5، 1940)، و(الحيوان)، و (البيان والتبيين) لـ (الجاحظ) (1939)، ونشر مجموعة من الرسائل في الفلسفة والطب والعلوم الطبيعية لـ (ابن باجة)؛ منها: (رسالة في النبات) (الأندلس 1940)، ورسالة (قول في اتصال العقل بالإنسان) متناً وترجمةً إلى الإسبانية (مدريد 1942)، ونص لـ(الفارابي) منسوب إلى (ابن رشد) (الأندلس 7، 1942)، ونشر معجماً بأسماء البنات في الأندلس في القرنين الحادي عشر و الثاني عشر لمؤلف مجهول (مدريد 1943)، ومعجماً بأسماء الأماكن من أصل عربي في الأندلس (مدريد 1944)، ونشر له بعد وفاته: قصة المعراج و الكوميديا الإلهية (مدريد 1945)، وكتاب (تدبير المتوحّد) لـ(ابن باجّة) (مدريد 1946)، وكتاب عن (ابن مسرة) و مدرسته في جزأين (مدريد 1946). (25)

وقد توفي آسين بلاثيوس في عام 1944 بعد نحو ثلاثة وسبعين عاماً بذلها في سبيل العلم، مع سِجِلٍّ حافل بالدراسات في مجال الثقافة العربية الإسلامية.

أما (**فيديريكو كورينتي**/Federico Corriente Cordoba) فقد ولد في (جرانادا) إسبانيا بتاريخ 14 – 11 – 1940؛ أي: قبل وفاة (بلاثيوس) بنحو أربع سنوات، وتعلّم في جامعة (مدريد) وحصل منها على الليسانس في علم اللغات العبرية والشرقية، عن رسالة بعنوان: (أهل الكهف لتوفيق الحكيم: عرض للمسرحيات العربية الحديثة) (1952)، وحصل على الدكتوراه في علم اللغة عن رسالة بعنوان: (المشاكل الخاصة بالنظام الجمعي للغات الشرقية والعبرية) (1967)، وقد شغل منصب مدير المركز الثقافي في القاهرة (1962)، ومنصب مدرس اللغة الإسبانية في مدرسة الألسن العليا في جامعة عين شمس، ورئيس مؤسس للقسم الإسباني في القسم العربي بجامعة محمد الخامس في الرباط (1968)، و أستاذ اللغات الشرقية و العربية فيه، ومنصب أستاذ أساسي لقسم اللغات الشرقية والعربية في جامعة فيلادلفيا الأمريكية (1975)، وأستاذ اللغة العربية في جامعة مدريد (1972 –

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1681

1976)، وأستاذ كرسي اللغة العربية و الآداب في جامعة سرقسطة (منذ 1976)، ثم أستاذ الدراسات العربية والإسلامية في جامعة مدريد.

ومن آثاره: (أهل الكهف لتوفيق الحكيم) نشر في المعهد الإسباني العربي، مدريد (1963)، و (القصص الشعبية الإسبانية–مقالات أدبية إسبانية)، ترجمها إلى العربية بمعاونة شوقي حبشي (القاهرة 1966)، و(عودة الروح) لـ(توفيق الحكيم) نشر في مدريد (1978)، ومعجم إسباني عربي، نشر في مدريد عن المعهد الإسباني العربي (1970)، و(مشكلة الثنائية في اللغات السامية) نشر في مدريد (1971)، و(المعلقات في العصر الجاهلي) نشره المعهد الإسباني العربي (1974)، ومعجم عربي إسباني، صدر عن المعهد الإسباني العربي مدريد (1977). وحقق عدداً من النصوص العربية، مثل: (المقتبس) لـ (ابن حيان)، الجزء الخامس، وديوانيّ (ابن قُزمان) و(الشُّشْتُري).

ومن مقالاته: عرض خاص بنطق الحروف التي تنطق عن طريق الاحتكاك في اللغة العربية والعبرية (1970)، والقدرة الوظيفية الخاصة باستخراج الأساليب الأدبية وتركيبها في اللغة العربية وعلم الكلمة في اللغة العبرية (1971)، وعناصر من الأدب الشعبي العربي (مجلة الأندلس 32، 1970)، واللهجة عربية والتدليل عليها في كتاب الأغاني (1975)، واللغة العربية القديمة قبل الإسلام– ملاحظات على مصادر علماء اللغة الأصليين (1976)، وتطور نظام الهجاء الأصلي للغة الإسبانية العربية (المؤتمر التاسع القومي للإسلام و العرب في العصور الوسطى 1975)، والوزن والقافية في الشعر العربي (الأندلس 41، 1976)، والتماثل اللفظي في اللغة العربية القديمة كدليل على عملية عدم تحول الضاد وتطور مستواها الانعكاسي، واستدراكات واقتراحات جديدة على هامش ديوان (ابن قُزمان) (1983).
والتداخل اللغوي بين العربية واللغات الرومانسية في شبه الجزيرة الإيبيرية، صدر ضمن كتاب (الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس)، الطبعة العربية (1998). ومن محاضراته: (ابن قزمان وحبه للشعر) (1974).

ولايزال (فيدريكو كورينتي) يتابع دراساته حول الثقافة العربية الإسبانية حتى الآن، مكملاً بذلك مسيرة الاستشراق الإسباني الطويلة.

وليس ما عُرض في هذه الصفحات سوى جزء من كل، يدل بوضوح على الوظيفة التي أداها المستشرقون الإسبان تجاه ثقافتنا العربية، ومازالوا يؤدونها حتى الآن. ولعل هذا من شأنه أن يدعونا إلى ضرورة تفعيل اللقاءات

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1681

الثقافية العربية الإسبانية ليطّلع كلا الطرفين على ما أنجزه الآخر، ولن يتم ذلك إلا بتشجيع توسيع نطاق الترجمة بين اللغتين: العربية والإسبانية، وتشجيع اللقاء بين المثقفين من كِلا الثقافتين.

الهوامش والإحالات

1-عن اهتمام المستشرقين بالنصوص الدينية ينظر: عليان، محمد عبد الفاتح، أضواء على الاستشراق، ص 53-57

2-ينظر: المصدر السابق ص 9. وراجع بهذا الصدد حديث مكسيم رودنسون عن مولد الاستشراق ضمن كتاب تراث الإسلام، تصنيف: شاخت وبوزورث، 1/ 59 – 60.

3-بنظر عقيقي، نجيب، المستشرقون: ثلاث مجلدات.

4-عن تطور موقف الدراسات الغربية من الحضارة الإسلامية ينظر: الفصل الطويل الذي كتبه مكسيم رودنسون ضمن كتاب تراث الإسلام: 1/ 31 -93.

5-مقدّمة د. حامد يوسف أبو أحمد لكتاب: أثر الثقافة العربية في الأدب الإسباني، تأليف: لوثي لوبيث بارالت: 1/ 20-21

6-ورد نص الخطاب كاملاً في مجلة دراسات أندلسية، العدد التاسع، 1993. ص 5-8.

7-ينظر: ريوساليدو، خيسوس، الأسطورة الإسلامية في إسبانيا بعد خروج المسلمين منها، ضمن كتاب: رؤى إسبانية في الثقافة العربية، ص37.

8-ينظر: عقيقي، المستشرقون، 2/ 173-175.

9-ينظر: المصدر السابق، 2/ 175-177.

10-ينظر: العقيقي، المستشرقون 2/ 177- 179.

11-ينظر: المصدر نفسه: 2/ 180 – 264.

12-مقدّمة: د. حامد أبو أحمد لكتاب أثر الثقافة العربية في الأدب الإسباني لـ د. لوثي لوبيث - بارالت، ص 17

13-عن نظرية ريبيرا يمكن مراجعة مُلخّص لها عند آنجل بلنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص 603 -613. وينظر رأي بلنثيا في أثر الشعر الأندلسي في شعراء التروبادور: تاريخ الفكر الأندلسي، ص 615.

14-صدر كتاب بلاثيوس مترجما إلى العربية بعنوان: أثر الإسلام في الكوميديا الإلهية، تر: جلال مظهر. وحول تأثر دانتي بقصص المعراج الإسلامية ينظر: بلنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص 551-572.

15-مجمل معلومات هذا المستوى منقول عن الفصل الخاص بمستشرقي إسبانيا ضمن كتاب نجيب العقيقي: المستشرقون: 2/180-264.

16-طبع عام 1505م وأعيد طبعه عام 1805م.

17-عن مدرسة طليطلة راجع: بلنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص 536-540. وفيرنيت، فضل الأندلس على ثقافة الغرب، ص 179-202.

18-بلنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص 537.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1681

19-السويسي، محمد – العلوم العربية بالأندلس ونقلها إلى أوروبا ودورها في تطوير العلوم، مجلة دراسات أندلسية، عدد 12، ص 15.

20-ينظر: العقيقي- المستشرقون، ص 2/ 186 – 202.

21-ذكر العقيقي أن الترجمة الأولى لمعاني القرآن أنجزها فيرنيت عام 1953. على حين يذكر ناشرو كتاب فيرنيت – فضل الأندلس على ثقافة الغرب أنها تمت عام 1952. ينظر: العقيقي – المستشرقون: 2/ 238. وفيرنيت- فضل الأندلس على ثقافة الغرب ص8

22-ينظر: عنان، محمد عبد الله، أندلسيات، ص 218-219. وقد تابع فهرسة مخطوطات الإسكوريال بعد ديرنبورج كلاً من ليفي-بروفنسال ثم رينو. ينظر: العقيقي، المستشرقون: 176/2

23-ينظر: العقيقي، المستشرقون: 2/ 181-238

24-كل المعلومات المتعلقة بالأب آسين بلاثيوس منقولة عن: العقيقي، المستشرقون: 2/ 194-196. نقلاً عن مجلة الأندلس جـ 9 ص 267 – 319 عام 1944.

25-ينظر: العقيقي – المستشرقون: 2/ 194-196. نقلاً عن مجلة الأندلس جـ 9 ص 267 – 319 عام 1944.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1681